في السّيرة الذاتيّة للدّكـتور رفعت الأسد

تشكّل الأوسمة، والشّهادات الفخريّة، وغيرها من الجوائز التقديرية التي حصل عليها الدّكتور رفعت الأسد، لوحدها، سيرة ذاتيّة ناطقة بإنجازاته الكثيرة، وإسهاماته المتنوعة والمتميزة في مختلف المجالات التي تغطّيها نشاطاته العلمية والفكرية والإجتماعية والسّياسية.

إن هذه الشهادات التقديريّة، التي نالها الدكتور رفعت الأسد، جاءت من مؤسّسات علمية ودولية مرموقة لما عُرف عنه من إتّساع المعرفة وعمقها الكبير، كما عرف عن إبداعه في مجالات الممارسة السّياسية، وعلى صعيد الحزب، وعلى صعيد الدّولة، وفي مستوى العلاقات الدولية، وفي مختلف مجالاتها.

فهو يزاوج بين الالتزام بالمحدّدات النظرية والعقائدية التي هي بمثابة الدستور للحزب، وبين الحرص على أن يكون هذا الإلتزام ترجمة فعلية لطموحات وآمال أوسع الجماهير، والشرائح الإجتماعية الوطنية، وذلك لأنه أدرك تماماً وبشكلٍ مبكر، أنّ الممارسة الحزبية التي لا تلتف حولها، ولا تحضنها أغلب فئات الشعب، لا يمكن لها أن تحقق الاهداف المتوخاة منها، في أي مجال من المجالات، بل أنها قد تتحول على العكس من ذلك، عاجلاً أو آجلاً، إلى ممارسة مناهضة لآمال وطموحات هذا الشعب بالذّات، انطلاقاً من حرصها على إعطاء الأولوية المطلقة للحزب الذي يتحول شيئاً فشيئاً عن الحياة العامة

لينكفىء إلى الدوائر الضيّقة للصراعات الدّاخلية التي تنتهي، في أغلب الأحيان إلى تفكيك أواصر وعرى العلاقات الحزبية السّوية. الأمر الذي يحول هذا الإطار المفترض فيه أن يكون منظماً جماعياً إلى مجرد ساحة للتكتلات غير المبدئية والصراعات ذات الطابع الذّاتي القاتل للحزب والممارسة السّياسية معاً.

عرف عن الدكتور رفعت الأسد نضاله المبكر ضد الدّكتاتورية في مختلف أشكالها، فقد شارك وهو في مقاعد الدراسة في كل الأعمال الجماهيرية التي عرفتها سوريّة خلال الحكم الدكتاتوري في عهدي حسني الزعيم وأديب الشيشكلي، كما ناهض كل الإيديولوجيات الشمولية سواء اتّخذت شكلاً شيوعياً أو دينياً متطرفاً معتبراً أنّ السّياسي الحقيقي هو الذي يستمع إلى نبض الشّعب بمختلف شرائحه الإجتماعية، وخاصة منها الفقراء الذين يواجهون تحدّيات تأمين لقمة العيش وتربية ابنائهم . وقدم ثمناً لنضاله هذا، تضحيات منها أداء ضريبة السجن مرات كثيرة، وفي مختلف المراحل السّياسية التي عرفتها سوريّة، انطلاقاً من زمن الوحدة في إطار الجمهوريّة العربيّة المتحدة نظراً للطابع التسلطي للحكم آنذاك، كما عرف السجن أيضا في عهد الإنقلاب على الوحدة، وما كان يُسمى بعهد الإنفصال.

انتسب إلى حزب البعث، وكانت تنتابه حالة عاطفيّة قويّة تجعله أكثر ميلاً إلى الواقع العملي، خاصة وأن بعض الشعارات المرفوعة خلال تلك الفترات لا يربطها بالواقع الفعلي للشّعب أي رابط جدي، وهذا ما جعله يقف على النقيض تماماً مع الدكتاتورية الجديدة التي مارسها الإنفصاليون، رغم أنهم أشاعوا في الناس أن عداءهم للتسلّط والديكتاتورية هو الذي دفعهم إلى الانقلاب على الوحدة مع مصر. وقد شارك الدكتور رفعت الأسد في الإنقلاب ضد سلطة الإنفصال الديكتاتورية، ولم يتوان في النضال ضد ديكتاتورية مشيل عفلق ومجموعات أمين الحافظ ومحمد عمران، ومن جهةٍ أخرى نفذ حركة ٢٣ شباط حيث قاد التغيير الذي أطاح بتلك المجموعة عام **١٩٦٦م**، والتي أدت إلى هروبهم إلى بغداد حيث انضموا الى حزب البعث

العراقي، وحل محلهم قيادة جديدة رئيسها الفعلي صلاح جديد ورئيسها الشكلي الدّكتور نورالدّين الأتاسي.

وبدأت القيادة الجديدة في ممارسة دكتاتوريتها الخاصة بأسلوب مختلف، اعتمدت فيه أساساً على المناورة والتسلط وإخفاء الحقائق عن الجماهير والشّعب عامة، واستمراراً لنهج الدّكتور المعادي الدكتاتورية، عمل مع مجموعة من المدنيّين والعسكريّين انضموا إليه للإطاحة بالدكتاتورية الجديدة، وهو ما نفذه في الحركة المعروفة بالحركة التصحيحية عام ١٩٧٠.

يذكر أن الرئيس حافظ الأسد رفض التعاون مع المجموعة التي يقودها الدّكتور رفعت لإعادة السلطة إلى الشعب. وقد وعد الرئيس بإعادة هذه السلطة إلى الشعب في آخر المطاف عن طريق بناء المؤسسّات بعد أن تم تغييبها ما بين العام ١٩٦٣ و١٩٧٠، كما وعد بالانفتاح على العالم العربي والخارجي لتعود سوريّة إلى مركزها المؤثر في الشّؤون الإقليمية والدولية .

غير أن الرئيس ما لبث أن طرح مقولة جديدة مفادها: يجب أن يصاغ الدستور على قاعدة التحرير بما ينسجم مع اتجاه تحرير الأراضي العربية المحتلة. وتمت الموافقة على هذه الفكرة على مضض لتخوّف الدّكتور رفعت من أن تكون مجرد خدعة جديدة أو ذريعة يُراد بها تكريس نوع متميز من الدكتاتورية، ولم تكن لديه قناعة تامة بأن هذه المقولة هي التي تشكل الأساس في بناء نظام سياسي جديد حقاً.

بعد نهاية حرب تشرين عام ١٩٧٣، أرسل الدكتور رفعت إلى الرئيس حافظ الأسد رسالة يطلب منه فيها استثمار النتائج الطيبة للحرب للتخلي عن السلطة لفائدة الشعب السّوري والعودة الى صفوف القوات المسلحة، وللحقيقة والتّاريخ فإن الرئيس بدا إيجابياً، في البداية، وقد عبر عن استعداده بشكل شفهي للعمل في هذا الإتجاه ،ولم يتوقف الدّكتور رفعت الأسد عند هذا الحد، وإنّما طالب ومعه كل الذين يؤمنون بالتغيير نحو التحرر وكل الديمقراطيين بتعليق الإشتراكية التي أساءت إلى الإقتصاد

الوطني أيما اساءة، كما أساءت إلى كرامة الإنسان العربي السّوري، حيث صارت قاعدة الشّعب العريضة هي التي يقع عليها عبء هذا الإسلوب .

لكنه من الملاحظ ابتداءً من عام ١٩٧٤ أنّ الدكتور رفعت الأسد ومن يساندونه في طرحه هذا قد أصبحوا جميعاً هدفاً مباشراً للرئيس وأعوانه في القيادة، كما لو أنّ التعبير عن رأي والدفاع عن موقف المناداة بالتغيير وتعليق الإشتراكية هو بمثابة ارتكاب جرم سياسي.

غير أن كل ما تعرض له من ضغوط، وما أثير حوله، وحول رفاقه من إشاعات مغرضة، لم يحل دون تمكن النّهج الديمقراطي الذي تزعمه من تحقيق نتائج هامة في الإنتخابات الحزبية لعام ١٩٧٥، حيث تم إسقاط رموز الدكتاتورية. وقد استطاع نصف أولئك البقاء في القيادة حيث لم يتمكن التيّار الديمقراطي من إسقاط هذا النصف بسبب قوّة الضجيج الاشتراكي واليساري، والسيول الجارفة من التهم المغرضة التي كانت تنهال على هذا التيار بزعم تبعيته للخارج لمجرد رفعه شعار الديمقراطية وضرورة الإحتكام إلى مقتضياتها في مختلف مستويات تشكيل الهيئات الحزبية وتسيير دواليب الدولة، وتحت الدخان الكثيف لهذه التهم المغرضة استطاع الرئيس مع جماعته العودة مرّةً أخرى، إلى القيادة لتمكنهم من المحافظة على الأكثرية في القيادة التي واصلت نهجها الدكتاتوري الإستبدادي. مما جعل جميع رفاق التيار الديمقراطي وفي مقدمتهم الدّكتور رفعت الأسد، مدنيين وعسكريين، في قلب لوحة التنشين بالنسبة للقيادة.

في هذا السياق، وفي أول اجتماع للقيادة بعد الانتخابات اتّخذ هؤلاء قرار إبعاد الدّكتور رفعت الأسد عن الجيش، والإبقاء على وجود عسكري شكلي وليس فعلياً في أي يوم من الأيام، واعتبرت الوحدة ٥٦٩ التي كانت تحت قيادة الدّكتور رفعت من إحتياطي القائد الأعلى للجيش، أي الرئيس حافظ الأسد.

بالفعل، فقد كانت تعمل تحت قيادته المباشرة. وتم تسليم الدّكتور رفعت الاسد إدارة التعليم العالي والجامعات والمعاهد العليا، بعد أن كانوا يكتفون بالإشراف الرمزي على هذه القطاعات في السابق.
لقد حوّل الرئيس هذه الوحدة الى حرسه الجمهوري، واستمر بإضعافها رغم الوفاء منقطع النظير الذي كان لها تجاهه. وقد أتى ببعض الضبّاط الآخرين الموالين له إلى هذه الوحدة، والذين لم يترددوا بتشكيل تنظيمات ومجموعات سرية داخل الوحدة، وقد بدأ الدّكتور رفعت يشعر بأن هناك شيئاً غريباً ما يجري داخل هذه الوحدة، والمؤشر عليه هو الدور الذي كان يلعبه ابن الرئيس الأكبر المرحوم باسل، والتأثير الذي كان يحاول ممارسته في مرافق أساسية من هذه الوحدات. وما أن اعترض الدكتور رفعت على ذلك، حتى واجهه الرئيس بقرارٍ قيادي بموجبه لا يمكن الجمع بين المنصب العسكري والمنصب السياسي، ولعله من المفيد التذكير أن الحزب في الواقع لا يقود الدولة، لكنه يشرف على تنظيم مؤسسات الدولة التي تقاد بشكل مباشر من الرئيس. أي أن الحزب لا يقوم إلاّ بخدمة الرئيس والدولة التي تخضع بالنتيجة لقيادة الرئيس، أي أن الأمر يتعلق بسياسة الرجل الفرد والقيادة الفردية، وبالتالي، فإن الحزب قد فقد كل صلاحياته الحقيقية في علاقاته بالمجتمع وبالدولة معاً.

لقد أدرك الدّكتور رفعت الأسد أنّ العمل على التغيير يتطلب جهداً فكرياً وعقائدياً متواصلاً، لأن الأمر يتعلق بتغيير الذهنيات والقطع مع الممارسات الديماغوجية والإستبدادية من الأساس، وليس إجراء تغييرات سطحية وشكلية لا تمس الجوهر.

في هذا السياق بدأ تحركاً فكرياً داخل الحزب منادياً بتغيير الدّستور، لأنه بطبيعته دستور رجل واحد، وليس له أي علاقة كبيرة بالشعب ومصالحه العليا. ذلك أنه قد وضع وتم فرضه في شروط عاطفية خاصة بعد حركة التغيير التصحيحية. وذلك لتأكدهم أن الأمر لا يختلف شيئا عمّا كان قبل ثلاثة وعشرين عاماً، غير أن الاستبداد في هذه المرة قد اكتسب خبرة من الماضي الذي تم تقنينه عبر ممارسات الدولة عبر دستور شكلي وعبر إنتخابات شكلية أنتجت مؤسسات مشلولة. وقد كان

هناك إجماع من قبل قوى الحرية والتغيير على ضرورة مواجهة هذا الواقع الدكتاتوري على مستويات الفكر والسياسة.

عندما شعر الرئيس بهذه الحركة، شدّد قبضته على الجيش بما في ذلك الوحدة ٥٦٩ وسرايا الدفاع التي كانت تقوم بمهمة حماية المطارات العسكرية، والتي لم تشترك في يوم من الأيام في أي عمل خارج المطارات.

تعد سرايا الدفاع من هذه الوحدات التي سميّت كذلك عندما كان الدّكتور رفعت الأسد ما يزال في الإعدادي وقبل حركة آذار ١٩٦٣م . غير أنّ هذه الوحدات التي كانت في المطارات أصبحت محط إشاعات وتهم شتّى، مع العلم أن الوحدة ٥٦٩ هي التي كانت مسؤولة عن تدريبها، وكانت ذات سمعة جيّدة في القوات المسلحة وفي الشّارع السّوري، كما كانت الأولى دائماً في جميع المستويات العسكرية. ولهذا أطلق على هذه الوحدة اسم سرايا الدفاع، وهي التي كانت مرتبطة بالقوة الجوية التي كانت تدفع رواتب أعضائها.

كان الرئيس أوّل قائد لسرايا الدفاع عندما كان ملازماً أول في مطار المزّة العسكري، وغيّر اسمها من سرايا الحراسة والدّفاع إلى سرايا الدّفاع بعد أن أصبح قائد القوات الجوية.

عُرف الدّكتور "رفعت الأسد " طيلة حياته بنزاهته وشجاعته لوقوفه بحزم من أجل الدّفاع عمّا يؤمن به، الأمر الذي أدّى به إلى مواجهة الكثير من المواقف الصعبة، ومن أهمها توتر العلاقات بينه وبين الحكومة السّورية.

هذا الوضع لايزال مستمراً مع النظام السّوري الحالي بقيادة "الرئيس بشّار الأسد " نجل الرئيس السابق "حافظ الأسد".

رغم ذلك ، مازال يحمل إيديولوجيته وأمله لرؤية سورية دولة تحكمها المبادئ السامية، والتي تقوم على إيديولوجية العدل والسّلام والحرية.

من خلال خبراته والوقت الذي قضاه في الخارج ،وفي الآونة الأخيرة قد توسّعت هذه الرؤية لتصبح بمفهوم عالمي، حيث يسعى الآن لرؤية هذه القيم والمبادئ تطبق على نطاق دولي وعالمي ، بما فيها توحّد الشّعوب والأمم وفق إيديولوجية العدل والسّلام والحرية.